مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية

ISSN *2352-9849 EISSN 2602-6929

العدد 17جوان 2017

محاولة في فهم سوسيولوجيا الهيمنة (قراءة في فكر بيير بورديو)

د.مُحَّد سنينة

جامعة بليدة 2

أ. هشام معيري

جامعة بليدة 2

ملخص:

يعتبر *بيير بورديو* من الباحثين اللامعين الذين شاركوا في عدة مجالات يمكن أن ننسبه إليها (الفلسفة، الاقتصاد، العلوم الاجتماعية، تحليل اللغة ...). إلا أن إنتاجه السوسيولوجي الغزير جعله يتموضع تحت شارة السوسيولوجيا. فتصوراته قدمت سوسيولوجيا نقدية لغرض التغلب على الأزمة التي عاشتها السوسيولوجيا. حيث طور التصورات التي طرحها كارل ماركس واستبعد التصورات المحافظة التي قدمها إميل دوركايم مع الاعتماد على جانب من تصورات ماكس فيبر وبناها بطريقة مبدعة. تجلت في كتاباته العلمية التي جعلت مهمتها الرئيسة فضح سياسة واستراتيجيات المهيمنين وتفكيكها. من خلال تصوراته لسوسيولوجيا الهيمنة التي دعمها بعدة مفاهيم جديدة (الآبيتوس، الحقل، رأس المال النوعي). ساهمت في فهم آليات الهيمنة وطرق اشتغالها. كما أنه استحدث عدة مفاهيم أخرى أراد من خلالها تطوير السوسيولوجيا وانطلاقها إلى آفاق أوسع. ومحاولتنا هنا جاءت لفهم سوسيولوجيا الهيمنة التي كانت من مجموع القضايا التي كانت متوارية وساهم *بيير بورديو* في إظهارها. وبذلك شكلت تصورات *بيير بورديو تطعيما للسوسيولوجيا الكلاسيكية مبنية على النقد للمساهمة في فهم أوضح للحياة الاجتماعية.*

الكلمات المفتاحية: سوسيولوجيا الهيمنة؛ بيير بورديو.

Abstract :

Pierre Bourdieu is a brilliant scholar who has participated in several fields (Philosophy, Economics, Social Sciences, Language Analysis, etc.). However, his prolific sociological production made him under the banner of sociology. His presented critical visions to overcome the crisis of sociology. He developed in a creative way the ideas put forward by Karl Marx and ruled out the conservative

perceptions presented by Emile Durkheim with a reliance on a part of the perceptions of Max Weber. This was manifested in his scientific writings, whose main task was to show and dismantle the policies and strategies of the dominants. Through his perceptions of Dominance, which were supported by several new concepts (habits, the field, the qualitative capital), he contributed to the understanding of the mechanisms of domination and its methods of operation. He also developed several concepts, through which he wanted to develop sociology and launch it to a wider perspective. Our attempt here was to understand the sociology of Dominance, which was one of the many issues that were hidden and Pierre Bourdieu contributed to its presentation. Thus, Pierre Bourdieu's perceptions were based on criticism of the classical sociology to contribute to a clearer understanding of social life.

Keywords : Sociology of Dominance; Pierre Bourdieu

مقدمة:

إن فكرة الهيمنة الاجتماعية هي بحق دائما مشاركة في أعمال *بيير بورديو فلم يكن الوحيد ولا الأول الذي اقترح سوسيولوجيا الهيمنة. فوراء الهيمنة يتجمع طيف عريض من الظواهر الاجتماعية، فلا يمكن للباحث السوسيولوجي أن يفوت فرصة دراسة هذه الظواهر والتي تكشف عن آليات هذه الهيمنة. فكل باحث سوسيولوجي باختلاف تصوراته سواء كانت (ماركسية، دوركايمية، فيبرية، ....)، فقد انتهى بطريقة أو بأخرى إلى تأسيس نماذج تأويلية لتحليل البنيات العامة للتراتبية الاجتماعية التي تميز الجماعات المهيمنة والجماعات المهيمن عليها داخل المجتمعات التي يلاحظونها.*

إن الهيمنة موضوعا ومفهوما لا تنتمي خاصة إلى سوسيولوجيا بيير بورديو، فقد كانت هناك عدة اقترابات تحاول تأويل وتفسير هذه الظاهرة ومحاولة الكشف عن آلياتها، لكن المقاربة التي جاء بها بيير بورديو كانت مميزة بقدر من الواقعية والبساطة، التي أكسبتها تفردا داخل النظريات الكبرى لعلم الاجتماع، من خلال الدمج بين هذه النظريات لتعطينا أدوات لفهم سوسيولوجيا الهيمنة.

فما هي المقاربة المميزة التي جاء بها بيير بورديو؟ وما هي آلياتها لفهم سوسيولوجيا الهيمنة؟

I/ محاولة في فهم نظرية الممارسة ل*بيير بورديو*:

علم الاجتماع كغيره من المعارف والعلوم البشرية، تعتبر النظرية شرطاً أساسياً لتفسير أشكال الحياة وللتفاعلات البينية في المجتمعات البشرية، ومع ذلك فإن النظرية في علم الاجتماع تتميز بالانقسام والاختلاف الذي يصل حد التناقض أحياناً، وقد ظل هذا الانقسام والاختلاف في المشهد السوسيولوجي لفترة طويلة من الزمن، إلا أن هذا التمايز في النظريات الاجتماعية أفرز توزع للباحثين السوسيولوجيين حول قطبين من أقطاب النظرية الاجتماعية، وهذا لبقائهما واستمرارهما لفترة طويلة من الزمن مهيمنتين على المخيال السوسيولوجي، بمعنى توزع الباحثين في تفسير الظاهرة الاجتماعية حول مخيال البنية الاجتماعية ومخيال الفعل الاجتماعي، وكانت تفسيراتهم تقف على أساس البنية والفعل أو الوحدات الكبرى والصغرى التي تشكل الوجود الاجتماعي.

إن أنصار كل من النظريتين يرون أن تفسير الظاهرة الاجتماعية يكون وفقا لمخياله السوسيولوجي، لكن ومع استحالة وجود نظرية شاملة لتفسير الظاهرة الاجتماعية، فإن النظرية التي تستطيع تفسير الظواهر المتعلقة بالبنية لا يكون بمقدورها تفسير الفعل البشري[1].

إن تمسك الباحثين بمخيالاتهم السوسيولوجية سواء القائلين بالفعل الاجتماعي أو البنية الاجتماعية، في تفسير الظاهرة الاجتماعية، هو ما أدى إلى بلورة تصورات نظرية أخرى تحاول التقريب أو حتى الدمج بين النظريتين، فبينما النظرية البنوية التي تؤكد على إزاحة الفاعلين الاجتماعيين، وجعلتهم خاضعين للبناء الاجتماعي ونتاجا له، على نحو اعتبار البناء يعمل بشكل آلي يتجاوز وعي وإرادة الفاعلين، جاء رد الاعتبار لهذا الفاعل من خلال التصور النظري ل*بيير بورديو*.

ولحل الإشكال الواقع بين البنية والفعل، هو الاعتقاد بأن التعارض بينهما هو أمر مصطنع ومشوه، فثمة علاقة جدلية بين البنية والفعل، ولذا ينبغي أن يصيغ الباحثين في علم الاجتماع توليف بينهما [1]، وهذا ما ظهر في قول بيير بورديو: "... وعلى الرغم أن الفاعلين نتاج البنية، لكنهم صنعوا ويصنعون البنية بإستمرار، ويمكنهم بتوافر بعض الشروط البنيوية تحويلها جذريا" [1]، وهذا ما تمثل في المقاربة النسقية التي اعتمدها بيير بورديو في نظريته تجاوزا للتحليل البنيوي الوظيفي، ليبني على أنقاض ما تحطم بفعل نقده، نظرية الإنشاء الذاتي للنسق [1].أو ما تسمى بنظرية الممارسة، فبالمعنى السابق فإن هذه النظرية هي نتاج لنقد البنية الاجتماعية وفي نفس الوقت هي تحرير للفعل الاجتماعي من خضوعه للبنية.

إن مفهوم الممارسة يركز على العلاقة الجدلية بين الفاعل والبنية، وهي العلاقة التي تنتهي بأن يقوم البناء بإعادة إنتاج ذاته، أو تحويل وتغيير البناء من طرف الفاعلين، ولكن يستلزم ذلك توافر شروط بنيوية، فالفاعل وفق هذه المقاربة لا يكون مجرد نتاج يقوم بدوره وفقط، بل مشاركا في البناء أو تحويله عن طريق الممارسة. وقد حاول *بيير بورديو توضيح مقاربته عن طريق استحـــداث عدة مفاهيــم كانت مؤسسة لهذه المقاربـــة، فاستحـــدث مفهـــوم الحق ـــل* ***Le champ*** *الذي يشير إلى مفهوم البنية، وأوضح كيف أن الفاعلين هم نتاج البنية باستحداث مفهوم الآبيتوس* ***Habitus*** *والذي يعني الخلقة أو الاستعدادات، وأوضح الشروط البنوية فاستحدث مفهوم رأس المال النوعي أو الخاص* ***Capitalspécifique***، *فتصبح الممارسة هي محصلة العلاقة الجدلية ما بين الحقل والآبيتوس من أجل الهيمنة على رأس المال النوعي، وهذا ما سعى إليه بيير بورديو من خلال بناء نظرية تمكنه من الانتقال من البنية إلى الفعل فتبقى البنية ويبقى الفاعلين نتاج للبنية (البنية تعيد إنتاج ذاتها)، أو الانتقال من الفعل إلى البنية فيكون نتاج هذه الممارسة تحويل البنية من طرف الفاعلين، وهذا ما تعكسه مقولة بيير بورديو: " ... وعلى الرغم أن الفاعلين نتاج البنية، لكنهم صنعوا ويصنعون البنية بإستمرار ويمكنهم، بتوافر بعض الشروط البنوية، تحويلها جذريا"* [1]*، فالسياقات الاجتماعية التي نجد أنفسنا فيها، تؤثر فينا جميعا. غير أن هذه السياقات ليست هي وحدها التي تسير سلوكنا وتتحكم به. فنحن نمثل بل ونصنع شخصيتنا الفردية. ومن المهمات التي يضطلع بها علم الاجتماع أن يتقصى الترابط بين ما يفعله بنا المجتمع من جهة، وما نفعله بأنفسنا من جهة أخرى. إن أنشطتنا تبني، أي تشكل العالم الاجتماعي حولنا مثل ما العالم الاجتماعي يبني ويشكل هذه الأنشطة في الوقت نفسه* [1]*. وسنأتي على تفصيل هذه المفاهيم المؤسسة لنظرية الممارسة من خلال إسقاطاتها على ظاهرة الهيمنة الاجتماعية.*

/ نظرية الممارسة لبيير بورديو وظاهرة الهيمنة الاجتماعية:

يذهب بيير بورديو إلى أن السوسيولوجيا علم لا يختزل البحث فيه عن سلطة واحدة، فالسلطة سُلط وكل واحدة مرتبطة بالفضاء الذي تمارس فيه. فإن تطرح السوسيولوجيا سؤال كينونتها رهين البحث عن هذه الأشكال للسلط يعني أن تدرس هذه الأشكال منزلة في فضائها الاجتماعي، بمعنى دراسة الشروط الاجتماعية لإمكانية ممارسة السلطة المؤدية إلى الهيمنة [1]*. فرؤية بيير بورديو للسلطة المؤدية للهيمنة الاجتماعية ليست مختزلة في العنف فقط، بل لها شروط وآليات ينبغي الكشف عنها وتحليل مشروعيتها.*

وقد تتقاطع هذه الرؤية مع رؤية ميشال فوكو حيث يقول: "أعتقد أن تحليل السلطة يجب أن يكون كشيء حركي ومنتشر ومتداول أو باعتبارها تعمل كالسلسلة. لا تتموضع السلطة هنا أو هناك. ليس بين يدي أي أحد، وهي لا تملك كما تمتلك الثروة أو الأملاك .. السلطة تعمل وتشتغل؛ السلطة تمارس في الشبكة، وفي هذه الشبكة يكون الأفراد في وضع الخاضعين وأيضا الممارسين للسلطة. ليس الهدف الثابت والمستمر للسلطة أن ينوء بها الأفراد بل أن يشكلوا صلة الوصل لها. بتعبير آخر، السلطة تنتقل بواسطة الأفراد ولا تنطبق عليهم"[1].

الهيمنة لدى بيير بورديو غالبا ما تكون خفية وغير مرئية، لذا وجب تعرية أسس شرعيتها وتجريح آلياتها حتى يسقط قناعها القدسي ونعي الحتمية التي تسودنا... فهي عبارة عن نظام من العلاقات المتشابكة تؤدي في نهاية المطاف إلى تشكيل نسيج كثيف وسميك يخترق كل الأجهزة والمؤسسات وأيضا الأفعال والعلاقات من دون أن تسكن واحدا منها، فهي مثل الزئبق متحركة لا تقف لها على وقفة قط [1]*. هذا الذي دفع بـ بيير بورديو إلى استحداث مفاهيم تمكنه من الوقوف على آليات الهيمنة الاجتماعية الظاهر منها والباطن.*

فقد دأب بيير بورديو على إظهار علاقات القوة المتضمنة في الواقع الاجتماعي وفي الميدان الاجتماعي. منذ أن تولى العمل الميداني في الجزائر في الستينات من القرن العشرين، التزم بيير بورديو بالكشف عن طرق الهيمنة الطبقية الكامنة في المجتمعات كما

تظهر في جميع نواحي التربية والتعليم والفن. إن أطروحته المستمرة تقوم على أن الطبقة المهيمنة لا تبسط هيمنتها بشكل مكشوف: فهي لا تجبر المهيَمن عليهم على الإذعان لإرادتها. كما أنها لا تفرض هيمنتها في المجتمع من خلال مؤامرة تحوكها حيث يقوم المخططون بصورة واعية باستغلال الواقع بما يتفق مع مصلحتهم الذاتية. بل إن الذي يحصل هو أن الطبقة المهيمنة في المجتمع هي، من الناحية الإحصائية، المستفيدة من السلطة الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والرمزية، السلطة متجسدة في رأس المال الاقتصادي، الثقافي، الاجتماعي، والرمزي، والمتداخلة في سائر مؤسسات المجتمع وممارساته، والتي تتم إعادة إنتاجها من قبل هذه المؤسسات والممارسات نفسها[1].

فالهيمنة الاجتماعية هي ميل الأفراد إلى الاعتقاد بأن المجتمع مكون من طبقات وأن ثمة عدداً من الأفراد يقعون في أعلى الهرم الاجتماعي إذ يستحقون مواقعهم ويفرضون هيمنتهم وسيطرتهم على الأفراد الذين يقعون في أدنى الهرم الاجتماعي بوصفهم خاضعين لهم[1]، فالمجتمعات الأكثر تعقيداً هي المجتمعات التي تتميز بالجماعات الهرمية، والتي تكشف عن وجود نوعان منها: الجماعة المهيمنة، وهي الجماعة التي تحضى بأفضل الفرص في التعليم، والصحة، والثروة، والمنزلة. والجماعة المذعنة التي تؤشر لها حالات المرض، والفقر، والبطالة والجهل[1].

إن نظرية الهيمنة الاجتماعية يمكن وصفها كإطار نظري يجمع ويوحد مجموعة من الأطر النفسية المختلفة، فهي تعبر عن مضامين اجتماعية من خلال تأكيدها على أهمية المنزلة الاجتماعية للفرد، كما أنها تستعين بالنظريات التي درست التعصبية والتسلطية والتمييز، فضلاً عن ذلك فإنها تتناول نظريات التعلم والتنشئة الاجتماعية من خلال تأكيدها على أن خلفية الفرد الثقافية والاجتماعية لها دور بالغ في صياغة توجهه نحو الهيمنة الاجتماعية أو قبولها أو رفضها[1].

ومن خلال هذا العرض المختصر للهيمنة الاجتماعية يمكن استخلاص عدة أبعاد ومطابقتها بمقاربة الممارسة الاجتماعية، فعندما نتكلم عن التركيبة الشخصية للفرد وما يحمله من استعداد أو أمزجة أو ميول شخصية فيمكن إسقاطها على مفهوم الآبيتوس **Habitus**، وعند التكلم عن أهمية المنزلة الاجتماعية للفرد، والتعصبية والتسلطية والتمييز، ونتاج التعلم والتنشئة الاجتماعية فيمكن اسقاطها على مفهوم رأس المال النوعي أو الخاص ***Capitalspécifique***، أما عن مفهوم الحقل **Lechamp** فإنبيير بورديو يقوم بتفكيك المجتمع إلى مجموعة من الحقول، كالحقل السياسي، الثقافي، الديني، الفني ... إلخ.

فكل حقل من هذه الحقول يحتاج إلى رأس مال نوعي مختلف، والمتفاعلون داخل الحقل يمتلكون بالضرورة آبيتوس (استعدادات) متفاوتة. بتفاوت رأس المال النوعي، الذي يمتلكونه، وبالتالي فإن علاقات القوة داخل الحقل، التي تحدد حيازة المكانة داخله وبالتالي الهيمنة عليه، ترتبط بآبيتوس الفاعلين. وما أضافه بيير بورديو هنا، هو جعل العلاقة الجدلية بين الآبيتوس والحقل ممكنة التصور والتحقق على أرض الواقع، فالفاعلون يتعاملون مع حقول، ولا يتعاملون مع البناء الاجتماعي الكلي، وتتحدد قدرة الفاعلين على حيازة المكانة داخل هذه الحقول المتنوعة والهيمنة عليها، بمجموعة من الخبرات والاستعدادات التي يحملها آبيتوس هؤلاء الفاعلين، مع حجم رأس المال النوعي الذي يمتلكونه[1].

III/ المفاهيم الأساسية لفهم الهيمنة الاجتماعية:

أولا: الحقل **Lechamp**: لقد استخدم بيير بورديو مفهوم الحقل كأداة تفسيرية وسيطة تربط مقاربة الممارسة الاجتماعية بفهم البناء الكلي للمجتمع، وتتيح له فهم العلاقات والتفاعلات التي تتم في الحياة الاجتماعية، فقد قسم الفضاء الاجتماعي إلى حقول، وهذه الأخيرة تختلف فيما بينها، وكل منها له قانونه الخاص المختلف عن غيره من الحقول الموجودة في الفضاء الاجتماعي، فالصراع بين الفاعلين داخل الحقل السياسي يختلف عن الصراع بين الفاعلين في الحقل الديني مثلا، كما أن المناصب والمراكز داخل كل حقل تحتاج إلى رأس مال مختلف، والآبيتوس الخاص بالفاعلين المتصارعين على هذه المناصب أو

المراكز مختلف كذلك، ومن ثم فإن النظرية البنائية العامة لن تقود إلى تفسير الظاهرة الاجتماعية داخل هذه الحقول للاختلافات السابقة بعكس نظرية الممارسة[1].

فبنية الحقل هي حالة صراع القوى بين الفاعلين أو بين المؤسسات الداخلة في الصراع أو، إذا شئنا، توزيع رأس المال النوعي الذي تراكم أثناء الصراعات السابقة والذي يوجه الاستراتيجيات اللاحقة. هذه البنية، التي هي أساس الاستراتيجيات التي تعمل على تغييرها، هي نفسها دائما موضع صراع، فاحتكار سلطة معينة هي سمة الحقل المعني أي، باختصار، الاحتفاظ ببنية توزيع رأس المال النوعي أو هدمها، هو التحدي الذي يسم الصراعات التي تحدث في الحقل[1].

فالحقل بهذا المعنى ميدان الصراع للتحكم في الموارد وتحقيق المصالح، صراع بين القادم الجديد الذي يحاول اختراق حدود الحقل لحيازة مركز أو منصب داخله، والفاعل المتمركز داخل الحقل الذي يحاول الدفاع عن احتكاره للمركز، ويحاول أن يبقي نفسه خارج دائرة المنافسة، وعليه فلا يمكن فهم بنية الحقل إلا من خلال الكشف عن حالة علاقات القوة بين الفاعلين في المؤسسات التي يضمها هذا الحقل في لحظة تاريخية محددة ... فالفاعلين أصحاب المكانات المختلفة يتواجهون داخل الحقل في كفاح مستمر، ولكل منهم أهدافه الخاصة؛ البعض يكافح للحفاظ على علاقات القوة المرضية بالنسبة إليه، والبعض الآخر يكافح من أجل تغيير هذه العلاقات[1].

مما سبق، يمكن القول أن الحقل هو فضاء للصراع، والهدف من هذا الصراع هو الهيمنة على هذا الحقل. فالفاعلين داخل الحقل يسعون للوصول إلى مركز ومكانة في تراتبية هذا الحقل، والعلاقات التي تحدث داخله من علاقات الصراع والتحالفات هي من أجل السيطرة والهيمنة على هذا الحقل، وما يحدد الهيمنة والسيطرة على حقل معين، هو الرصيد الذي تم تعبئته الفاعلون في هذا الحقل، ونقصد بالرصيد رأس المال النوعي لهذا الحقل.

ثانيا: *الآبيتوس* *Habitus*:

هو نسق الاستعدادات التي ينشأ عليها الفرد ويكتسبها، وهي تتعلق بأربع مستويات: العرفاني، والخلقي، والجمالي، وهيئة الجسد. وعلى العموم فالآبيتوس كنسق من الاستعدادات يعمل وفق آليات داخلية معقدة تكون حدود النسق وتشكله، في استقلالية عن محيطه، وتظهر إلى العلن في ممارسات تعبر عن الهوية الاجتماعية لصاحبها وانتمائه. ويعرف بيير بورديو الآبيتوس كالآتي: أنساق من الاستعدادات المستدامة والقابلة للنقل. إنها بنى مبْنَينة، قابلة، مسبقا، للاشتغال بوصفها بنى مبْنَينة، أي باعتبارها مبادئ مولدة ومنظمة لممارسات وتمثلات يمكن لها، موضوعيا أن تتأقلم مع هدفها، من دون افتراض رؤية واعية للغايات والتحكم الصريح في العمليات الضرورية من أجل بلوغها[1].

الآبيتوس يعتبره البعض خطأً أنه الأعمال الروتينية المحددة في الحياة اليومية، أو أنه مرادف لتعبير "التنشئة الاجتماعية"، ولكنه في الواقع جزء من نظرية بيير بورديو حول الممارسة الاجتماعية. ويعني التعبير بوضوح عن الميولات والاستعدادات داخل الحقل الاجتماعي، فهو نوع من التعبير عن الاستثمار (قد يكون لا شعوريا) لأولئك الموجودين داخل الحقل الاجتماعي في نقاط القوة المتضمنة فيه. والآبيتوس نوع من القواعد للأفعال —علم نحو الأفعال– يؤدي غرض التمييز بين الطبقة المهيمِنة وأخرى المهيَمن عليها في الحقل الاجتماعي[1].

إذن فالآبيتوس هو نظام من الخطط الواعية وغير الواعية في التفكير والإدراك والاستعدادات، والذي يسمح له بالتفاعل داخل الحقل الذي ينتمي إليه. وكلما كان آبيتوس الفاعلين له القدرة على التكيف مع التفاعلات داخل الحقل الخاص به، كلما كنا في إمكان هذا الفاعل الارتقاء في تراتبية ذلك الحقل.

ثالثا: رأس المال النوعي أو الخاص ***Capitalspécifique***:

إذا كان رأس المال، بمعنى الرأس مال الاقتصادي كامتلاك ثروات مادية أو مالية، عنصرا مهما في التكوين الاجتماعي، والعلاقات الاجتماعية إلى حد أنه يضع بالقوة الأغنياء مقابل الفقراء، فإن غيره من أنواع رأس المال تلعب دورا مهما أيضا في الديناميكية الاجتماعية. وضدا عن رؤية اقتصادية مفرطة، يطرح *بيير بورديو لهذه الأنواع الأخرى من رأس المال التحليل الماركسي الذي يؤسس الروابط الاجتماعية، والنزاعات الناتجة عنها*[1].

إن مفهوم رأس المال يمثل مفهوماً مركزياً في المشروع النظري لـ *بيير بورديو* ، والمفهوم مستمد أساساً من علم الاقتصاد الكلاسيكي، ويعني الثروة المتراكمة، ويستخدم في النظرية الماركسية للإشارة إلى العلاقة بين مالكي وسائل الإنتاج وبائعي قوة العمل، أما *بيير بورديو* فقد وسع فكرة رأس المال المطروحة في علم الاقتصاد وفي النظرية الماركسية، بحيث أصبح يتضمن رأس المال النقدي وغير النقدي، كما يشتمل على الصور المادية الملموسة أو الصور اللامادية غير الملموسة[1].

إن استخدام *بيير بورديو* لمفهوم رأس المال لا يقتصر فقط على البعد الاقتصادي الكلاسيكي وإنما يتجاوز ذلك إلى أبعاد أخرى متنوعة فهنا كعدة صور لرأس المال مثل رأس المال الثقافي ورأس المال الاجتماعي ورأس المال الرمزي، وتعكس تلك الرؤية لرأس المال تفسيرا متعدد الأبعاد للظواهر الاجتماعية، فهو يرى أن العالم الاجتماعي يمكن إدراكه كفضاء متعدد الأبعاد يتشكل واقعياً من خلال الهيمنة على الأشكال المتنوعة لرأس المال، إن رأس المال الاقتصادي يرتبط مباشرة بالثروة، أما الأشكال الأخرى لرأس المال فتمثل صورة منضور القوة في المجتمع[1].

كما يشير *بيير بورديو ووفقا لأبحاثه الإمبريقية فإن هذا الرأس المال النوعي هو عبارة عن السلطات الاجتماعية الأساسية، فيمكن أن يصبح نشطا، وفعالا، مثل الأوراق الرابحة في لعبة ورق. في المنافسة من أجل الهيمنة التي يعد هذا العالم الاجتماعي موضعا لها، وهكذا يتوزع الفاعلون في الفضاء الاجتماعي الكلي، في البعد الأول طبقا للحجم الكلي لرأس المال النوعي الذي يملكونه. في البعد الثاني طبقا لبنية رأس مالهم النوعي، أي طبقا للوزن النسبي لمختلف أنواع رأس المال؛ الاقتصادي، الثقافي، الاجتماعي، والرمزي*[1].

يذهب *بيير بورديو* إلى أن رأس المال النوعي هو كل طاقة يمتلكها الفرد ويعتمد عليها في التميز والمنافسة، وفي سياق توصيفه للأنواع المختلفة من رأس المال، يذكر أن هناك أربعة أنواع من رأس المال هي:

1/ رأس المال الاقتصادي: عندما نفكر في رأس المال المادي فإن ما يتبادر إلى الذهن هو العُدد والآلات والمعدات والمصانع التي توفر البنى التحتية والسعة التشغيلية لإنتاج البضائع وتقديم الخدمات[1].

فيقصد به الأموال والمواد والأدوات اللازمة لإنشاء نشاط اقتصادي أو تجاري ويكون الهدف من المشروع الربح أو الإعلام أو الأعمال الإنسانية، وهو المحرك الرئيسي لانعقاد أي مشروع ونجاحه، ويتكون من مجموعات أساسية غير متجانسة يتفرع من كل منها أشكال فرعية من المستخدمات القادرة على الإنتاج مثل الأدوات والمواد الخام، وربما القدرات البشرية النادرة، والمواد المساعدة في الإنتاج.

2/ رأس المال الثقافي: يقسمه *بيير بورديو* إلى نوعين أحدهما موروث وهو كل ما يناله الفرد خلال عملية التنشئة الاجتماعية، مثل عناصر البنية العقلية ومفردات اللغة، والآخر مكتسب، وهو كل ما يكتسبه الفرد من مؤهلات تعليمية.

وبالغالب فهو يتشكل مما يمنحه التعليم والتدريب من مهارات ومعرفة وامتيازات وتوقعات، فلم ينظر *بيير بورديو* للمدارس والجامعات باعتبارها مواقع لتوزيع رأس المال الثقافي، بقدر ما رأى فيها مواقع لمنح شرعية لرأس المال الثقافي للطبقتين الوسطى والعليا[1].

ويوجد رأس المال الثقافي في صور متعددة، فقد يكون مجموعة من القدرات والخصائص الدائمة المتمثلة داخل الفرد كالمعرفة والمهارات المختلفة، وقد يتمثل في السلع الثقافية كالكتب واللوحات الفنية
ويتمثل كذلك في الألقاب والشهادات العلمية[1].

فرأس المال الثقافي يتكون من مجموعة من الثروات الرمزية التي تحيل: من جهة، على المعارفالمكتسبة التي تمثل "في الحالة المدمجة على شكل استعدادات دائمة للبنية" (أن تكون كفئا في هذا أو ذاك من مجالات المعرفة، أن تكون مثقفا، أن يكون لديك إتقان جيد للغة، والبلاغة، أن تكون عارفا بالعالم الاجتماعي ورموزه وخبيرا فيه ...)، ومن جهة أخرى، على إنجازات مادية، ورأس مال في حالة موضوعية، هو ميراث ثروات ثقافية (لوحات فنية، كتب، معاجم، أدوات، آلات ...)[1].

ويرتبط الرأس مال الثقافي بالهيمنة عن طريق استخدامه في تثبيت الأوضاع القائمة بالنسبة للمهيمنين، وليكن الحقل التعليمي مثلا، ففي هذا الحقل تمارس الطبقة المهيمِنة عمليات تحو يلي قيمهم وثقافتهم إلى معرفة تلقن للطلاب ليعاد إنتاج قيم وثقافة الطبقة المهيمِنة[1].

وقد يكون العكس بالنسبة للفاعلين الطامحين ووفق الآبيتوس الذي يملكونه فهم قادرين على الكشف على الطبقة المهيمنة والمهيمن عليها، وبالتالي قلب الموازين وممارسة عمليات التحويل داخل الحقل وليس إعادة الإنتاج.

3/رأس المال الرمزي: ويقصد به الموارد المتاحة للفرد نتيجة امتلاكه سمات محددة كالشرف والهيبة والسمعة الطيبة والسيرة الحسنة والتي يتم إدراكها وتقييمها من جانب أفراد المجتمع، ويعد رأس المال الرمزي مصدر اللسلطة، حيث يمنح صاحبه مكانة اجتماعية في الجماعة التي ينتمي إليها، ويصبح للشخص كلمة أو رأيا مسموعا، ويتوزع رأس المال الرمزي على رؤوس الأموال الأخرى[1].

لا يدخر *بيير بورديو* جهدا في العودة إلى ماكس فيبر لتعريف رأسالمال الرمزي. لقد وجد في مفهوم الكاريزما قرابة تجعله يتقرب في أحيان كثيرة منه ثم يتباين عنه. القرابة تكمن في أن رأس المال الرمزي ليس سوى صورة أخرى لما أسماه ماكس فيبر الكاريزما. أما التباين فإن سببه أن ماكس فيبر جعل من مفهوم الكاريزما شكلا خصوصيا للسلطة بدلا من أن يجعله بعدا لكل سلطة. لذلك يقترب رأس المال الرمزي من مفهوم الشرعية أكثر من أي مفهوم آخر لكونه حالا في كل السلط أو هو ذات السلطة التي تمارس بها الهيمنة[1].

وعليه فإن رأس المال الرمزي يشير إلى درجات المكانة التي يكتسبها الفرد ويتم التعبير عن هذه المكانة أو القوة الرمزية من خلال علامات التمييز داخل كل حقل، تلك العلامات التي تعمل على إبراز وتأكيد المكانة الاجتماعية[1].

4/رأس المال الاجتماعي: يعرفه *بيير بورديو* بأنه مجموع الموارد، الفعلية أو المفترضة، التي يجنيها فرد أو مجموعة بحكم امتلاك شبكة مستديمة من العلاقات المؤسسة – بسيطة أو معقدة - للتعارف والاعتراف المتبادل [1]، وذلك في إطار الانضواء تحت لواء جماعة معينة، فالانتماء لجماعة ما يمنح كل عضو من أعضائها سنداً من الثقة والأمان الجماعي، وهذا ما نطلق عليه في لغتنا العادية أو لهجتنا "عنده علاقات".

ويرى *بيير بورديو* أن رأس المال الاجتماعي يعد شكلا مهما من رأس المال يمتلكه أعضاء الشبكة الاجتماعية أو الجماعة، ومن خلال الصلات بين الأعضاء يمكن أن يستخدم رأس المال الاجتماعي كنوع من الائتمان، بهذا المعنى يعد رأس المال الاجتماعي دعما جمعيًا يمنح الأعضاء شكلا إئتمانيا، ويتم المحافظة عليه وتعزيزه لفائدته عندما يستمر الأفراد في الاستثمار في العلاقات الاجتماعية[1].

ولذلك يقرر *بيير بورديو* أن رأس المال الاجتماعي هو رأس مال من العلاقات القوية الذي يمنح الأفراد دعما مهما وقت الحاجة، إن العلاقات القوية تخلق السمعة الطيبة والشرف بين أعضاء الجماعة، ومن ثم تكون أكثر فاعلية في بناء الثقة

واستدامتها، إن أعضاء الجماعة يمنحون الأمن لبعضهم البعض، ويتم الحفاظ على العلاقات الاجتماعية بين أعضاء الجماعة من خلال عمليات التبادل المادي والرمزي (كالهدايا وحفاوة كل شخص بالآخر عندما يلتقيا في الشارع)، وتدعم هذه العمليات العلاقات الموجودة بالفعل، كما تعمل على اعتمادها ومأسستها اجتماعيا[1].

ويعتمد حجم رأس المال الاجتماعي الذي يتحصل عليه فاعل معين على حجم شبكة العلاقات التي يمكنه إدارتها بكفاءة، ويعتمد كذلك على كم رؤوس الأموال الأخرى كرأس المال الثقافي والرمزي والاقتصادي التي يمتلكها الفاعلون الآخرون المشاركون في شبكة العلاقات، كما تستلزم عملية إعادة إنتاج رأس المال الاجتماعي حداً أدنى من التجانس الموضوعي بين أعضاء الجماعة، كما تستلزم جهداً متواصلاً للحفاظ على تماسك الجماعة وتضامنها، وتستلزم كذلك مزيداً من الإدراك والوعي المتبادل بين أعضاء الجماعة أيا كان شكلها (أسرة – أمة– جماعة أو حزبا سياسياً) إن المفهوم المتعدد الأشكال لرأس المال المؤسس من لدن *بيير بورديو يسمح ببناء نمط تصور يكشف البنية مباشرة، ونسق العلاقة، ثم التبعية لكل حقل اجتماعي، وهكذا ففي مكان الصورة الهرمية المقترحة عموما، ينبغي أن يكون المجتمع مدركا كفضاء متعدد الأبعاد، كفضاء للاختلافات، اختلافات بين الشكل والحجم العام لرأس المال الذين يحددان مراكز يشغلها هذا الفاعل أو ذاك. فبقدر ما يزيد الفاعل من رصيده لرأس المال باختلاف أشكاله وبخصوصية رأس المال الذي يحتاجه حقل معين، بقدر ما يزيد من فرص تحسين وصيانة مركزه داخل الحقل الاجتماعي، بالأحرى أن يشغل الفاعل مركزا مهيمنا*[1].

IV/ العلاقة بين الأشكال المختلفة لرأس المال النوعي:

كما ذكرنا سابقا أن رأس المال النوعي قد يتخذ عدة أشكال، تختلف باختلاف الحقول الاجتماعية، فلكل حقل رأس مال نوعي خاص به، فالأشكال المختلفة لهذا رأس المال تتفاعل فيما بينها وكل منها يؤثر ويتأثر بالآخر. فتحول نوع من أنواع رأس المال إلى نوع آخر، هذا شيئ ممكن، على سبيل المثال في ميدان الثقافة، للحصول على جائزة أدبية، أو أكثر من هذا، لنيل حظوة الأقران، لا يلعب رأس المال الاقتصادي دورا مهما. فلكي يصبح مؤثرا يجب أن يخضع إلى تغيير [1]، وتحويله إلى علاقات اجتماعية بمعنى رأس مال اجتماعي، ويزيد رصيد رأس المال الاجتماعي بتزايد عدد اللقاءات، والحفلات، وتبادل الهدايا، وبهذا فرأس المال الاجتماعي الذي هو في الأصل رأس مال إقتصادي، هو الذي يتيح الفرصة للحصول على جائزة أدبية، أو نيل حظوة الأقران.

بيير بورديو مثلا لم ينعم برأس مال اقتصادي موروث، فهو ينتمي إلى أسرة فقيرة، ولكنه حصل على أكبر قدر من رأس المال الثقافي عبر التفوق العلمي. وبعد اعتراف الجماعة العلمية الفرنسية بهذه الجدارة، اكتسب *بيير بورديو* رأس مال رمزي — مكانة رفيعة — داخل المجتمع، وفي الوقت نفسه كان كل من رأس مال الثقافي والاجتماعي والرمزي السبب الرئيسي لازدهار رأس ماله الاقتصادي[1].

كما أن رأس المال الرمزي هو الشكل الذي تكتسبه رؤوس الأموال الأخرى في النهاية، فالفاعلون الاجتماعيون وباستعداداتهم الموروثة أو المكتسبة يسعون إلى التنافس داخل الفضاء الاجتماعي لزيادة أرصدتهم من رأس المال الاقتصادي، الثقافي، والاجتماعي، والاستثمار فيها من أجل تحويلها إلى رأس مال رمزي، الذي يتيح لهم فرص الارتقاء في تراتبية المجتمع وبالتالي الحصول على الاعتراف وتعزيز مكانتهم الاجتماعية.

V/ رأس المال الرمزي كأداة للهيمنة:

إن بيير بورديو هيأ نموذجا محاولا فيه الكشف عن آليات الهيمنة الاجتماعية وما يؤسس قوتها، هذا النموذج الذي كان بتصوراته المؤسسة لنظرية الممارسة الاجتماعية، المبنية على عدة مفاهيم ولعل أبرزها الآبيتوس والحقل ورأس المال النوعي، والآبيتوس هو المفهوم الجوهري والمفتاح في فهم الهيمنة الاجتماعية، فالفاعلين يملكون سلطات غير متساوية محددة بحجم وبنية رأس مالهم داخل

الفضاء الاجتماعي، فوفق لآبيتوس هؤلاء الفاعلين سيبقون ثابتين وبالتالي تبقى الحقول في عمليات إعادة إنتاج ذاتها، فيبقى الفاعل خاضعا وبدون شروط للفئة المهيمنة، أو يقومون بعمليات تعبئة الرصيد لمختلف رؤوس الأموال والعمل على تحويلها إلى رأس مال رمزي يسمح لهم بالارتقاء في تراتبية الفضاء الاجتماعي، وبالتالي التحرر من الخضوع والهيمنة. فتصور *بيير بورديو للهيمنة الاجتماعية، ولو أنها تحتفظ من عمل* كارل ماركس *بأن الحقيقةالاجتماعية هي مجموعة علاقات قوة بين جماعات اجتماعية متصارعة تاريخيا فيما بينها، إلا أنها في آخر الأمر، أقل تأثرا بـ* كارل ماركس مقارنة بماكس فيبر فهي تعيد فعليا إدخال العلاقات الرمزية، واعتبار أن الهيمنة هي دائما علاقة قوة غير قابلة للتفكك وصراع رمزي[1].

إن رأس المال الرمزي، هو ثمرة اعتراف من ترجيحات شرعية موقع ذاك الذي يمتلكه، يعني سيطرته، فيكشف من هنا حتى تبعية هذا الأخير إلى نظرة هذا الترجيح. إن هذا الالتباس حول رأس المال الرمزي، الذي يمنح سلطة غلبة متوقفة على المغلوب، تضرب جذورها في فعل أنثروبولوجي: الغالب يستمد سلطته من الاعتراف البسيط لذلك الذي اعترف بغلبته كشرعية. إن الهيمنة متعلقة إذن، في توافق مع الاعتراف، برأس المال الرمزي: "يؤمن رأس المال الرمزي أشكالا من الهيمنة التي تستلزم التبعية بالنسبة إلى أولئك الذي يسمح بالسيطرة عليهم: لا يوجد فعلا، إلا في التقدير، والاعتراف، والإيمان، والائتمان، وثقة الآخرين، وبواسطتها، ولا يستطيع أن يستمر أطول من هذا ليتمكن من الحصول على إيمان بوجوده"[1].

فالسلطة الرمزية لا تعمل عملها إلا إذا اعترف بها، أي إذا لم يؤبه بها باعتبارها قوة اعتباطية. هذا أمر إنما يعني أن السلطة الرمزية لا تتجلى في المنظومات الرمزية في شكل قوة بيانية وإنما في كونها، تتحدد بفضل علاقة معينة تربط من يمارس السلطة بمن يخضع لها، أي أنها تتحدد ببنية الحقل التي يؤكد فيها الاعتقاد ويعاد إنتاجه[1].

بهذا المعنى فالسلطة الرمزية تكون شريطة معرفة قوانين التحول التي تتحكم في قلب مختلف أنواع رأس المال وردها إلى رأس مال رمزي، كما أن كل رأس مال مهما كانت صورته، يمارس سلطة اجتماعية باختلاف بنية الحقول، بعبارة أخرى يتجاهل حقيقته كرأس مال فيفرض كسيادة تستدعي الاعتراف وتعزيز مكانة اجتماعية في تراتبية هذا الحقل الاجتماعي الذي يفرض من خلاله هيمنته.

خاتمة:

إن أبحاث *بيير بورديو* التفكيكية لأنساق وآليات الهيمنة الاجتماعية، يعتبر انتصارا للشرائح المهيمن عليها في سياق تكريس مفاهيم أكثر تعبيرا عن العدالة الاجتماعية، لذلك وفر بديلا علميا عن الماركسية التي ركزت على الجوانب الاقتصادية وأغفلت الجوانب الرمزية في تحليل حركة التاريخ والصراعات داخل المجتمع الواحد. وذلك في سياق تشريحه للعلاقات القائمة بين الأفراد في مختلف حقول الفضاء الاجتماعي/ المجتمع، وليس فقط في الحقل السياسي أو السلطة السياسية كاختزال سافر لمعاني الهيمنة؛ لأنّ أكثر الحقول التي لا تعلن عن نفسها كحقول هيمنة واستعباد إنّما تستثمر كلّ أدوات التخفي والاحتجاب لتمارس التقنع والمخاتلة والمراوغة والخداع .إن *بيير بورديو* يرفض النظر إلى المجتمع كما لو كان وحدة متكاملة ومنسجمة (التوجه البنيوي الوظيفي)، أو كتل منقسمة حسب ملكية وسائل وقوى الإنتاج بين المالكين وغير المالكين (التوجه الماركسي)، بل يعتبره فضاء متشكلا من حقول (سياسية، علمية، أدبية، دينية، تربوية،...) يشغلها فاعلون مهيمنون وآخرون مهيمن عليهم، بوساطة الرأسمال النوعي الخاص بكل حقل، وعند الانتقال من الحقول إلى الفضاء الاجتماعي فهو انتقال إلى مساحات اللعب، التي تعتمد على آليات التحويل لرأس المال النوعي إلى رأس مال رمزي.

فالفاعلون المهيمنون على الحقول يكونون في مساحات اللعب متنافسون ومتصارعون من أجل تحويل رؤوس الأموال النوعية إلى مكانة رمزية داخل الفضاء الاجتماعي، التي تكسبهم شرعية للهيمنة في فضاء قد قسم وفق هذا الصراع إلى طبقتين؛ طبقة مهيمِنة، وطبقة مهَيمن عليها.

الهوامش:

[1]إيان كريب، **النظرية الاجتماعية**، ترجمة: محمّد حسين غلوم، مجلة عالم المعرفة، ع (244)، صدرت عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1999، ص، 14.

[1]Loicwaquant, **Pierre Bourdieu**, in rob stones (ed),key ,P, 4.2006contemporarythinkers,London, Macmillan,

[1]بيير بورديو، **أسباب عملية**، ترجمة: أنور مغيث، دار الأزمنة الحديثة، بيروت، لبنان، 1998، ص، 203.

[1]بيير بورديو، جان-كلود باسرون، **إعادة الإنتاج**، ترجمة: ماهر تريمش، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2007، ص، 33.

[1]بيير بورديو، **أسباب عملية**، المرجع السابق، ص، 203.

[1]أنتوني غدنز، **علم الاجتماع**، ترجمة: فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2005، ص، 51.

[1]بيير بورديو، جان-كلود باسرون، المرجع السابق، ص-ص، 54-55.

[1]ميشيل فوكو، **يجب الدفاع عن المجتمع**، ترجمة: الزواوي بغوره، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2003، ص، 54.

[1]بيير بورديو، جان-كلود باسرون، المرجع السابق، ص، 55.

[1]جون ليشته، **خمسون مفكرا أساسيا معاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة** ، ترجمة: فاتن البستاني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2008، ص، 102.

[1]بشرى عناد مبارك، **التمثيلات الاجتماعية وعلاقتها بالتوجه نحو السيادة الاجتماعية لدى المنتمين للأحزاب السياسية** ، مجلة الفتح، ع (51)، 2012، ص، 130.

[1]المرجع نفسه، ص، 138.

[1]كاظم شنون كاظم الساعدي، **تصنيف الذات وعلاقته بالتوجه نحو الهيمنة الاجتماعية لدى طلبة الجامعة** ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، العراق، 2010، ص، 94.

[1]أحمد موسى بدوي، **ما بين الفعل والبناء الاجتماعي: بحث في نظرية الممارسة لدى بيير بورديو** ، مجلة إضافات، ع(8)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2009، ص، 12.

[1]المرجع نفسه، ص-ص، 14-15.

[1]بيير بورديو، **مسائل في علم الاجتماع**، ترجمة: هناء صبحي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة (مشروع كلمة)، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2012، ص، 183.

[1]أحمد موسى بدوي، المرجع السابق، ص، 15.

[1]بيير بورديو، **الهيمنة الذكورية**، ترجمة: سلمان قعفراني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2009، ص، 186.

[1]جون ليشته، المرجع السابق، ص، 106.

[1]ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، **معجم بورديو**، ترجمة: الزهرة إبراهيم، دار الجزاير للنشر، 2013، ص، 162.

[1]حسني إبراهيم عبد العظيم، حسام جابر أحمد، **دور العمل التطوعي في تنمية رأس المال الاجتماعي للمرأة** ، مجلة كلية الآداب، جامعة بني سويف، ع (27)، مصر، أبريل-يونيو 2013، ص، 560.

[1]SinasiOzturk, **Pierre Bourdieu's theory of social action**,SosyalBilimlerEnstitusuDergisi university of Mugla, Turkey, 2005 , P, 147.

[1]بيير بورديو، **بعبارة أخرى "محاولات باتجاه سوسيولوجيا إنعكاسية"** ، ترجمة: أحمد حسان، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، مصر، 2002، ص، 212.

[1]جيريمي ريفكين، **عصر الوصول**، ترجمة: صباح صدّيق الدملوجي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2009، ص، 93.

[1]حسني إبراهيم عبد العظيم، حسام جابر أحمد، المرجع السابق، ص، 561.

[1]Julia Häubere, **Social Capital Theory Towards a Methodological Foundation**, VS VerlagfürSozialwissenschaften | Springer Fachmedien Wiesbaden, Prague, 2011, P, 37.

[1]ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، مرجع سابق، ص، 162.

[1]Nan Lin, **Social capital: A theory of social structure and action**, Cambridge University press, 2004, P, 14.

[1]حسني إبراهيم عبد العظيم، حسام جابر أحمد، المرجع السابق، ص-ص، 561-562.

[1]بيير بورديو، جان-كلود باسرون، المرجع السابق، ص، 56.

[1]Jhon Field, **Social Capital key Idea**. London: Routledge Taylor & Francis 13. Group, 2003, p,

.[1]Ibid, p, 15

[1]Nan Lin, op, cit, P-P, 22-23.

[1]Julia Häubere, op, cit, P, 37.

[1]ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، المرجع السابق، ص، 166.

[1]بيير بورديو، **مسائل في علم الاجتماع**، المرجع السابق، ص، 93.

[1]أحمد موسى بدوي، المرجع السابق، ص-ص، 17-18.

[1]ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري، المرجع السابق، ص-ص، 193-194.

[1]المرجع نفسه، ص، 166.

[1]بيير بورديو، **الرمز والسلطة**، ترجمة: عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط 3، 2007، ص، 56.